الأساطير الألمانية

بقلم الدكتور مصطفى ماهر

مقدمة :

الأسطورة die Sage هى فى عرف الفقهاء حكاية شعبية شفهية لا تلتزم فى موضوعها بالحقيقة المحسوسة الملموسة المعقولة ، بل تتجاوزها الى المبالغة تارة والى الاعجاز تارة أخرى ، وتجتهد رغم هذا فى الظهور بمظهر الحقيقة الخالصة وتلتمس من المستمع اليها أن يأخذها مأخذ الجد ويحملها محمل الصدق . وان قلنا أن الأسطورة حكاية شعبية ، فلسنا نريد بذلك أن الشعب هو الذى يؤلفها ، انما الذى يؤلفها أدباء وشعراء وكهان لا ينتقل الينا اسمهم ، بل نريد بذلك ان الشعب يمتصها ويحتضنها ويرددها وينقلها من مكان الى مكان ومن زمن الى زمن ويحورها ويغيرها ، حتى تنتهى يوما ما الى الورق فتسجل ، أو تنتهى الى أديب ممن يعرفون الكتابة فيضمها الى كنز وحيه ، ويغترف منها ما يبقى الينا . ومن الأساطير ما يدور حول الآلهة ويسمى أساطير الآلهة ، ومنها ما يدور حول أحداث أو أشخاص تاريخيين ويسمى أساطير تاريخية أو أساطير أبطال ، ومنها ما يدور حول ظواهر طبيعية مخيفة أو غريبة أو مستغلقة على الفهم ويسمى أساطير طبيعية ومنها ما يدور حول الموتى والأرواح والعفاريت والحيوان والنبات وبعض الأماكن وما الى ذلك .

وأهم الأساطير التى أثرت على الأدب الألمانى، والفكر الألمانى أولا ثم على الأدب والفكر الانسانى كله ثانيا ، مجموعة الأساطير التى تدور حول الأبطال والتى تسمى « أساطير الأبطال Die Heldensagen » ، تلك المجموعة من الأساطير هى التى سنعالجها فى هذا المقال . والحقيقة أن دراسة الأساطير الألمانية القديمة تواجه أول ما تواجه مشكلة تحديد ماهية أساطير الأبطال ، أو بعبارة أخرى التفريق بين « أساطير الأبطال » و « أناشيد الأبطال » . واذا قلنا أنها مشكلة فاننا نعنى ذلك المشكلة بكل ما تحمل كلمة مشكلة من معنى ، خاصة وأن البحث فى الأساطير الألمانية حديث نسبيا ، لا يزيد عمره على القرن ونصف القرن ، وأنه لظروفه الخاصة لا ينال

حظه من الباحثين الجهابذة الذين يقطعون فيه بآراء جامعة مانعة أو بما يوشك أن يكون كذلك . فالشيء الملموس الذى يصل الينا هو النشيد المنظوم ، والشيء المستنتج أو المفترض هو الأسطورة . هناك من العلماء ــ ومنهم أندرياس هويسلر ــ من يقول أن الأسطورة لا تنشأ الا عندما ينشأ النشيد أو عندما يكون النشيد قد نشأ ، ويريد بذلك أن ينسب الأسطورة الى جهد خلاق فردى ، كما ينبغى نسبة العمل الفنى الى جهد خلاق فردى . فى الوقت الذى يأتى فيه شاعر فينظم نشيدا من أناشيد الأبطال ، تولد الأسطورة وتنتشر بين الناس فى الشكل الذى وضعها فيه ذلك الشاعر . وليس المقصود بذلك أن الشاعر الذى يكتب نشيدا بطوليا من شأنه أن ينشيء الأسطورة ، يبتدع الأسطورة ابتداعا ، بل المقصود أنه يستعمل عناصر متفرقة تتناقلها الأفواه أو تضطرب بها العقول والنفوس استعمالا فرديا فى الخلق ، جماعيا فى الاستجابة يضم هذه العناصر كما يضم النساج الخيوط فى نسيج واحد. وهناك فريق من الفقهاء القدامى والمعاصرين على حد سواء ــ وعلى رأسهم ڤيلهلم جريم وموللينهوف ثم شرودر ــ يرى أن الأسطورة تستحق أن يتحدث عنها المتحدثون مستقلة عن النشيد المنظوم المتناقل، فهى خلق فنى منبثق من « الميتوس » ومن التاريخ. فاعتبر البعض أسطورة زيجفريد مثلا قائمة على مزيج من « ميتوس الشمس » وأحداث عصر تجوال الشعوب (انظر مقالنا عن النيبلونجنليد فى مجلة تراث الانسانية العدد الأول من المجلد الرابع) وارتبط هذا الرأى بما روجته الحركة الرومانتيكية من فكرة الشعب الشاعر الخلاق فى مجموعه ، وكان هذا يعنى أن الشعب ككل هو الذى ينظم عناصر الميتوس والتاريخ فى أناشيده التى تظل ما بقى ، ينظمها الشعب فما بعد فم ، وقلبا مع قلب وفكرا الى جانب فكر ، حتى تكتمل وتصل مكتملة الى عصر التسجيل فيكتبها من يحسنون معالجة القلم والحبر والورق . وبهذا تضع هذه المدرسة « الشعب ينشيء الأسطورة والنشيد البطولى » فى مقابلة ما تذهب اليه المدرسة السابقة من ان « الفرد هو الذى ينشيء النشيد وبالتالى الأسطورة البطولية » . ولسنا نشك فى أن كل مدرسة لها فضلها، وأن كل مذهب فيه الصواب وغير الصواب. ولعلنا لو جردنا كل مدرسة من اتجاهاتها المتعنتة، نصل الى صورة مقبولة لنشأة الأسطورة ولعلاقتها بالنشيد المنظوم المنقول بالرواية ثم الكتابة الينا . أصل الأسطورة البطولية أصل تاريخى لا يساورنا فى ذلك أدنى شك ، قد نفتقر الى سجل كامل للأحداث التاريخية التى امتصتها الأساطير أو قد نضل فنركز فكرنا على أحداث لا تكون هى التى أدت الى الأسطورة ، ولكن الوقائع التاريخية هى أصل الأسطورة . ولاشك فى أن النفوس المعبأة بالميتوس عندما تعتمل بالأحداث وتلتمس لها التعبير اللفظى تصوغ الأناشيد على خلفية من الميتوس أوعى عناصر منه . ومن الطبيعى أن الشعب أو طائفة المنشدين الشعبيين الناطقين بلسانه يتبنى فى تذوقه ما يمس الوتر الحساس فى نفسه أو الخبرات التى جرت عليه ، ويظهر ذلك فى عملية تشكيل عام تستمر الى أن يثبت النص الأسطورى مكتوبا .

ويصح أن نضيف الى المنابع التى تتفجر بالأساطير البطولية والأناشيد البطولية نبعا آخر أبعد عمقا من تلك التى ذكرناها وهو «اللاشعور الجمعى» الذى يتحدث عنه العالم النفسى

والفيلسوف السويسرى المعاصر كارل جوستاف يونج (ولد عام ١٨٧٥ وتوفى عام ١٩٦١ ــ أستاذ فى زيوريخ ثم بازل ــ صاحب كتب « الأنماط النفسية » و « حقيقة الروح » و « سيكلولوجية اللاشعور » وغيرها) وهو لا شعور يشترك فيه الناس جميعا وتعمره أنماط أولى عبارة عن صور قديمة ضاربة فى القدم وأحلام عتيقة وألوان من الحنين لا يصل الانسان اليوم الى تاريخها أولا يكاد لقدمها ، تبلورت فى تكوينات قائمة بذاتها ينطق بها لسان الابداع الفنى اذا سبر الأغوار ونزل الى أعمق الأعماق فى النفس الانسانية . من هذه الأنماط مثلا نمط زيجفريد ونمط هاجن : زيجفريد نمط البطل الشاب القوى الجذاب المنتصر ، وهاجن نمط العدو القاسى اللدود . هذه الأنماط الأولى تتميز بأنها ذات فعالية خلاقة وبأنها تظهر فى الأعمال التالية على مر العصور بمكوناتها ومقوماتها الأساسية وتلبس من الثياب والقشور ما يشاء الخيال أو مقتضى الحال . فمن الممكن مثلا أن نبحث فى شخصية أجمونت بطل مسرحية يوهان ڤولفجنج فون جوته التى تحمل الاسم نفسه ، ونردها الى أسطورة زيجفريد ، أو على وجه التحديد الى النمط الأول « زيجفريد » .

وقد علت الحناجر مرددة النشيد البطولى ، خالقة الأسطورة البطولية ، لأنها كانت تستجيب الى حاجة جماعية الى الضخامة التاريخية ، اذا اتبعنا مصطلح نيتشة ، حاجة تجعلها تقف أمام الحدث التاريخى فتفتح له كنزا من الصور القديمة والأحلام القديمة وألوان الحنين ، وتضفى عليه من ذات نفسها او من خبرتها ما ينتهى بتجسيد النشيد البطولى والأسطورة . ويمكن أن نأخذ بفكرة الحاجة الجماعية الى الضخامة التاريخية ، أو الى الفخر والتفاخر ، كدافع أو حافز الى انشاء النشيد البطولى وتكوين الأسطورة البطولية وأن نضيف الى ذلك أن العصور التى عرفت هذه الألوان من الأعمال الفنية ، كانت تفتقر الى ما بين أيدينا اليوم من صحافة ومسرح ومنبر سياسى ، فاستعملت النشيد البطولى الأسطورى بديلا (ان صح هذا التعبير) لهذه الميادين كلها وصبت فيه ما لديها من أفكار وأحاسيس وأمانى وخيالات وأفكار .

الاهتمام بالبحث فى الأساطير الألمانية :

لا نعرف أن أحدا اهتم بجمع الأساطير الألمانية القديمة قبل كارل الأول أو الأعظم المسمى عند العرب شارلمان (من ٧٤٢ الى ٨١٤ ميلادية) ملك الفرنجة (من الجرمان) . وقد روى أنه بعد أن دعم النظام الثقافى والجهاز التعليمى فى دولته ، دولة الفرنجة ، على قدر الامكانيات التى كانت متاحة فى ذلك العصر ، وبعد أن أرسى قواعد الثقافة الغربية على أساس المسيحية من ناحية وعلوم الاغريق والرومان من ناحية ثانية ، اهتم بالثقافة الجرمانية القومية وأوصى بأن يوضع للغة الألمانية القديمة الشائعة فى ذلك العصر معجم ونحو وما الى ذلك ، وأمر بجمع الأساطير الجرمانية وتسجيلها كتابة . ويحدثنا التاريخ أن هذا حدث بالفعل ، وأصبح حقيقة واقعة ، الى أن تولى الحكم لودڤيج التقى ، ابن كارل الأكبر (ولد عام ٧٧٨ وتوفى عام ٨٤٠) ، فى عام ٨١٤ فقسم الدولة المتحدة بين أولاده ، وأتلف الكثير بتعصبه وضعفه ، وحرق مجموعة الأساطير التى جمعت بأمر أبيه ، منكرا ما بها من كفر وخروج على تعاليم الدين المسيحى . فضاعت نتيجة لهذا التصرف الأحمق ثروة قيمة أقل ما يمكننا أن نقوله عنها أنها لا تعوض .

ثم أغفل البحث الأساطير الألمانية فى العصور المختلفة الى أن ظهرت الحركة الرومانتيكية الألمانية مقتفية آثار هامان وهردر وخاصة هردر الذى لفت النظر الى الصلة الوثيقة والتشابه القوى بين الطبيعة وبين الانسان ، بين الجماعة وبين الفرد ، وذهب الى أن هناك شيئا عبقريا اسمه روح الشعب ، تنبثق منه الأعمال الفنية الرائعة النقية الخالصة الصادقة مثل الأناشيد التى تعرف بالأغانى الشعبية ، وراح يجمع هذه الثروة الفلكورية الهامة . وتبنت الحركة الرومانتيكية هذا المذهب ووسعته ما استطاعت ، واشتد الاهتمام بالعصر الوسيط وثقافته وبالعصور القديمة المتناهية فى القدم وما كان فيها من أساطير . وكان الرأى فى أول الأمر أن الاسماء التى تدور حولها الأساطير هى أسماء تاريخية (جوتتر ــ ارمانارش ــ ديتريش ــ تيودريش) ، وأن الأحداث المصورة هى من أحداث التاريخ . ثم ظهر رأى آخر يعتبر الأساطير فنا آخر فوق التاريخ ، يعتبرها معينا للمعرفة الأولى والأدب الأول والميتوس . ووجد من ربط بين الميتوس أى الأساطير الأولى الدائرة حول الآلهة وبين الأساطير البطولية و هى حديثة العهد، (مثل العلامة مونه Mone) وتصور زيجفريد على أنه اله الشمس ، وتصور ألوان الصراع التى تمتلىء بها الأساطير البطولية على أنها هى الصراعات التى اتصلت فى الميتوس بين قوى الظلمات واله الشمس . وأدت الى موت اله الشمس ، وبالانتقام لموته بنسف الكون ، وانتهت بمولد جديد لاله الشمس . العلامة « مونه » (صاحب كتاب دراسات فى تاريخ الأساطير البطولية الالمانية ، الصادر فى عام ١٨٣٦) اذن كان يذهب الى أن الأساطير البطولية هى شىء فوق التاريخ ، يجمع الى التاريخ ووقائعه مضمون الميتوس يقول : « جسد الاسطورة البطولية هو التاريخ ، وروحها الميتوس وقوة الحياة فى الروح .. فالميتوس هو الشرط الأول لنشأة الاسطورة البطولية ، فان لم يوجد الميتوس ، لا توجد الاسطورة البطولية ، ويكون النص على أكثر تقدير سردا تاريخيا . » ويتحدث معاصره جوريس Görres حديثا مشابها فى كتابه « زيجفريد المكسوبالقرنية والنيبيلونجن» فيذهب الى أنه كانت هناك أساطير قديمة عند الشعوب كلها وأتت الى الأراضى الجرمانية من آسيا عندما نزح الأجداد «الهند وجرمان» من موطنهن الأصلى، ثم تشكلت هذه الأساطير الأولى بما أدخل عليها من وقائع التاريخ . ودخول الوقائع التاريخية فى متن الأساطير البطولية هو الذى أدى الى اختلاف الأساطير فى الشعوب المختلفة حديثا ،وان ظلت روحها واحدة .

على ان البحث فى الأساطير الألمانية يرجع الى الأخوين جريم وينتسب اليهما انتساب الابن لأبيه (ياكوب ١٧٨٥ ــ ١٨٦٣ وڤيلهلم ١٧٨٦ ــ ١٨٥٩ انظر مقالنا « حكايات الأخوين جريم» فى مجلة تراث الانسانية العدد الثامن من المجلد الثانى ، وخاصة الى ڤيلهلم جريم الذى أصدر فى عام ١٨٢٩ كتابه الكلاسيكى « الأسطورة البطولية » ففتح به السبيل أمام الباحثين بعده بما بسط فيه من مشكلات وموضوعات أكثر مما صاغ فيه من حلول . وأول ما يذهب اليه جريم هو أن الاسطورة البطولية الألمانية شىء ليس من اليسير تحديده ، انها تمس كل ما لدى الأمة من فكر لا فرق بين سماوية وأرضية ، وتمتصه امتصاصا ، انها عمل عجيب أنشأه شاعر مجهول وضمنه أصفى شعر وحفظ به صورة حياة نضرة

قوية فنية ، انها ثمرة عصر فريد هام بالأبطال وأجلهم وقد انتهى ولا عود له . ثم يتعرض الى نظرية التاريخ والى نظرية الميتوس فلا يتشيع لأى منهما وينتج نهجا آخر يتلخص فى جمع الشواهد التى تفيد فى معرفة الأساطير البطولية وأصلها وتطورها ، والظاهر أن ڤيلهلم جريم كان يعتقد أن الفكر الانسانى تطور من حيث الحقيقة التاريخية مجتازا مراحل متتابعة هى : الميتوس (الآلهة .. الخ) ثم الملحمة ثم التاريخ .

أما معاصرو جريم مثل « فون هاجن » و « لاخمن » و « موللينهوف » و « أولاند » فكانوا جميعا اكثر ميلا الى الميتوس منهم الى التاريخ . « فون هاجن » يعتبر زيجفريد صورة حديثة تطورت عن « بالدور » فى ميتوس الآلهة. وأولاند يبذل جهودا كبيرة فى تحليل الأساطير البطولية لفصل عناصر الميتوس والقاء الضوء عليها ، فيتبين مثلا « الايمان بالرب الجرمانى أودين » على النحو الذى حفظته الأساطير الاسكندنافية ، يتبينه فى حتمية الخير والشر على السواء وفى التأكيد على فضيلة الشجاعة أيا ماكان هدفها ، فالخصمان المتصارعان يسيران الى الرب أودين فى نهاية تصارعهما .

وكان المحدثون من «هويسلر» الى«دى بور» الى « شنايدر » يرون أن الأسطورة البطولية والنشيد البطولى شىء واحد ، ويرفعون من شأن الشاعر الواحد المبدع الذى نطق بالنشيد والأسطورة فردا ، ويقللون من أهمية الجماعة كعنصر خلاق . الى أن خرج « شنايدر » منذ حوالى عشر سنوات على هذا المذهب الذى كان قد ذهب اليه مع غيره،فأكد أن النشيدوالأسطورة شيئان كانا موجودين معا فى العصور القديمة ، ورفع فى مذهبه الجديد من قدر الجماعة المبدعة ككل وتصور الأساطير البطولية على أنها صورة تجسم أمانى الأجيال فى ذلك الوقت السحيق .

مجموعات الأساطير :

من الممكن أن نقسم الأساطير الألمانية الى مجموعات حسب المنطقة التى تكونت فيها،أى على أساس جغرافى فنتحدث عن الأسطورة الفرنكية والأسطورة اللانجوباردية والأسطورة الفريزية والأسطورة الأليمانية وما الى ذلك (انظر تراث الانسانية ، المجلد الرابع ، العدد ١ ص ٣٤) ،ومن الممكن كذلك أن نقسم الأساطير تقسيما يعتمدعلى الموضوع الذى تدور حوله ، ونسميها باسم بطلها، فنتحدث عن أسطورة النيبيلونجن وأسطورة ارماناريش واسطورة هيلده وأسطورة ڤالتر وأسطورة ڤولفديتريش وأسطورة أورتنيت وما الى ذلك.وسنتتبع الأساطير الألمانية فيما يلى واحدة واحدة وسنشير الى العلاقة التى تربط كل واحدة بالميتوس (أساطير الآلهة السحيقة) من ناحية وبالتاريخ من ناحية ثانية مع التأكيد على القيمة الأدبية لكل أسطورة ، أى أننا سنرسم للأساطير أبعادا ثلاثة :

- الميتوس .
- التاريخ .
- العمل الأدبى .

ومادام الميتوس يتسم بهذه الأهمية فى نشأة الأساطير البطولية وفى تطورها من ناحية المضمون فلابد لنا أن نستعرض خطوطه العريضة : كان الجرمان القدماء يعيشون فى ملك فسيح تتكاثف فوقه الغابات الضخمة ، وترتفع فيه الجبال الشاهقة ذات الصخور الصلدة ، والنبت النضير ، والقمم الثلجية البيضاء ، وتتخلله الأنهار والمنابع

الفياضة ، وتهب عليه الرياح العاصفة وتسقط عليه الأمطار الغزيرة ويشق سماءه البرق ويدوى فيه الرعد ويظلله السحاب والغيام تارة وتسطع فوقه الشمس أحيانا أخرى وتتصل فيه حياة البشر المصارعين والحيوان بين شرسه وطيعة ، وكانوا بايحاء من هذه الحياة ومن صداها فى نفوسهم ومن فطرتهم ومن ميراث مجهول كان لهم ، يعبدون آلهة لا تصل اليها الأبصار ويقدمون لها الضحية للشكر والتكفير ، ويضعون على رئاستها الاله أودين (ثوتان أو فودان) رب الأرض كلها ورب السماء، الذى يفيء على الأحياء بالخير والنصر وعلى الموتى بدوام الحياة فى ملكوته، فما كان الموت فى شريعتهم الا عودا الى ملكوت ربهم . الاله أودين أو ثوتان أو فودان هو أبو الآلهة وأبو البشر وأبو كل شيء خرج منه وانبثق من قوته ، لذلك أطلقوا عليه اسم « الفادور » أى أب كل شيء . ولهذا الاله الأب ابن هو «تور» أو «دونر» رب الرعد والعاصفة وآخر هو «تير» أو « تسيو » الرب ذو الذراع الواحد ، رب السيف . كذلك لأودين زوجة هى الربة « فريجة » . وتحت امرته الربة «أوستارا» ربة الصباح المنبلج و «هل» ربة العالم السفلى الفظيعة ، وجيش من العمالقة والزبانية والأقزام والفالكيرات والالفات والنيكسات مكلف بالبشر ومصائرهم ، قائم على ما يتزن عليهم من خير أو شر ، سرور أو حزن ، حرب أو سلام . وكان الجرمان القدماء يؤمنون بأن الدنيا منتهية الى نهاية وأن نارا ستشتعل فى العالم فتفنيه عن آخره ، ويخلق ثوتان سماء جديدة وأرضا أخرى لا يكون فيها شر .

أما الظروف التاريخية التى تحيط بالأساطير الألمانية البطولية فهى فى غالبها أحداث عصر تجوال الشعوب (انظر مجلة تراث الانسانية المجلد الرابع العدد ١ ص ٣٢ و ٣٣) الممتد بين القرن الرابع والقرن السادس الميلادى . فقد زحفت على أوروبا فى الربع الأخير من القرن الرابع أمم أسيوية من المغول كانت مستقرة نوعا فى مواطنها بأواسط آسيا ثم تحركت فجأة نحو الصين فى القرن الأول قبل الميلاد ، ثم غيرت وجهتها وقصدت الغرب والتحمت بالجرمان . كانت هذه الأمة الزاحفة الفظيعة الهائلة هى أمة «الهون» . وأدى التحام الهون بالجرمان الى حركة تجوال الشعوب أو هجرة الشعوب وما صاحبها من خراب وموت وخوف . هجم الهون على دولة القوط فى جنوب شرق أوروبا وخربوها وأهلكوا الحرث والنسل ، حتى اضطر « ارمانارش » ملك القوط الى الارتماء على سيفه وانهاء حياته .. وبهذا انتهت دولة قوط الشرق (الذين كان يطلق عليهم أيضا « الأمالر » أو « الأميلونجن ») وهاجر أهلها . أما قوط الغرب فكانوا دائمى الاحتكاك بالامبراطورية الرومانية ، حتى اذا جاء الهون من ورائهم هجموا على الامبراطورية الرومانية وحققوا انتصارات على جيوشها أدت الى عقد اتفاقات بينهم وبين الرومان، منها الاعتراف بألاريش الأول ، من زعماء القوط ، واليا على اقليم بالبلقان . على أن هذه الاتفاقات لم توقف القوط عند حد ، بل انهم هجموا على روما واستولوا على الحكم فيها ، واجتازوا أرض فرنسا (وكانت تسمى انذاك جاليا) ونزلوا أسبانيا بعد معركة مع البورجوند ، والتحموا بالفندال وهم جرمان سبقوا الى هناك ، وزحزحوهم الى شمال أفريقيا . وما لبث الفندال أن زادوا قوة وعبروا البحر الى روما فغلبوا جيوشها وأساطيلهم ونصبوا أودواكر فى عام ٤٧٦ امبراطورا بدلا من رومولوس

أوجستوس هذا هو ما حدث للجرمان من قوط وفندال . أما الهون فأقاموا دولة بين نهرى الفولجا والدانوب على رأسها الملك أتيلا . وارتبط بالهون سقوط دولة البورجوند فقد زحف أتيوس عليها على رأس جيش من المرتزقة الهـون ، لا شأن لأتيلا بهم ، وأدى هذا الزحف الى فنـاء الدولة وقادتها كلهم . أما أتيلا فيذكر أنه تزوج من جرمانية اسمها هيلديكو وفى ليلة العرس أسرف فى الطعام والشراب فمات عام ٤٣٥ ميلادية على أن الصدام بين الهون والجرمان لم يهدأ ، وانتهى بعد كفاح مرير بالتخلص من سيطرة الهون والقضاة عليهم كقوة ضاربة ، ولابد أن نعود الى قوط الشرق مرة أخرى ونذكر تكليف القيصر الرومانى ملك القوط تيودريش الأكبر عام ٤٨٨ بالزحف على ايطـاليا والقضاء على حكم أودواكر ، وتمكن تيودريش الأكبر من قتل أودواكر بالخديعة فى حفلة أقـامها بمناسبة اتفاق كاناقدعقداه معا للاشتراك فى الحكم. وهناك تيودريش آخر هو تيـودريش الأول كان ملك القوط الغربيين بين عام ٤١٨ و ٤٥١ ميلادية وقاد حربا ضد الهون مات فيها ولكنها كانت حاسمة فى تصفية الهون .

والآن وقد تعرضنا للخطوط العريضة للميتوس وللتاريخ تتناول الأساطير الألمانية القديمة واحـدة واحدة :

أولا ــ أسطورة هلود وأنجانتير أو أسـطورة تلاحم الجرمان والهون :

تسجل هذه الأسطورة الصدام بين الجـرمان وبين الهون ، ذلك الصدام الذى لم يكن هناك من سبيل الى تخفيفه أو التغلب عليه بالتفاهم أو التقـارب أو المصاهرة . الجرمان قطب والهون قطب آخر وأنى للقطبين أن يتلاقيا . الهون يمثلون الفظاعة والبشاعة والعناد والجرمان لا يجـدون حيالهم وسيلة الا المنازلة بعد فشل المفاوضـة ، والمنازلة الى الموت فى أغلب الأحيان . والنشيد الذى يحكى هذه الأسطورة والذى اشتهر باسم « نشيد معركة الهون » يدور حول أخوين غير شقيقين ، أبوهما واحد ، وأم أحـدهما قوطيـة (جرمانية) كالأب ، وأم الآخر هونية ، يتنازعان ميراث أبيهما . هذان هما « هلود » و « انجاتير» هلود يذهب الى أنجاتير ويطـالبه بنصـيبه فى الميراث :

أريد نصف ميراث هايدريك ، النصف
من السهام والرماح والدراهم
والبقرة والعجول والطاحونة الصاخبة
والاماة والعبيد ومن ولدوا .
أريد الغابة الكبيرة التى يسمونها ميكفيد
والضريح المقدس القائم على طريق الجيش
والصخرة المنيرة على حافة الدنيبر
ونصف القلاع التى كانت ملكا لهايدريك
ونصف الأرض والناس والخواتم الوهاجة .

هذا هو الطلب الذى يتقدم به الأخ الهونى . أما أنجاتير القوطى الجرمانى ، فيرفض مبـدأ القسمة ، قسمة الأرض والناس ويوضح أن هذه القسمة لن تؤدى الا الى الحرب ويعرض على أخيه الهونى عرضا سخيا :

سيتحطم الدرع الأبيض الوهاج ، يا أخى ،
ويصطدم الرمح البارد بالرمح البارد
قبل أن أترك أرض ترفينجن تقسم
وأعطيك ... نصفها .
أريد أن أعطيك خواتم من ذهب
وأن أمنحك من المال والطيبات ما تشتهى :

أعطيك اثنتى عشر ألفا من الرجال واثنتى عشر ألفا من الخيل

أعطيك اثنتى عشر ألفا من الغلمان حملة الدروع .

وامنح كل رجل عطايا سخية .

أعظم سخاء مما يمكن أن ينال فى أى وقت أو مكان

وأمنح كل رجل أمة تكون ملكا له .

وأعلق حول رقبتها جوهرة .

أريد أن أغطيك جالسا بالفضة

وأغرقك سائرا بالذهب

حتى تتدحرج من حولك الخواتم والأساور .

ولكن هذا العرض لم يلق قبولا ، وكان من الضرورى أن يدخل السيف فاصلا . ويصور النشيد مباغتة الهون للقوط ، وكيف أن أنجاتتير أرسل اليهم رغم ذلك واحدا من خلصائه يتفق معهم على الحرب ومكانها وميقاتها على نحو كريم. ويقصد رسول أنجاتتير من وراء اختيار « دونهايده » مكانا للمعركة أن يكون فى منازل بركة الاله أودين ، رجاء أن يستجيب أودين ويقبل الهون ضحايا له .وتدور المعركة الفظيعة ويسقط الكثيرون حتى تمتلىء بهم الأنهار وتفيض ، وتنتهى المعركة باتتصار القوط على الهون ويموت الأخ الهونى هلود . ويقف أنجاتتير الأخ القوطى المنتصر عند جثة أخيه ويقول :

لقد عرضت عليك يا أخى الخواتم والأساور التى لا سوء فيها

ومن الذهب والطيبات كل ما تشتهى

فلم تنل الآن من الصراع

لا الأرض ولا الناس ولا الخواتم الوضاءة .

لقد أصابنا يا أخى السوء : لقد قتلتك .

فليذكر الناس الى الأبد : لقد أنزلت بنا « نورنه » نازلة .

(ونورنه هى ربة الحظ والقدر) .

هذا النشيد القوطى لا نعرف له أساسا من التاريخ ، ولا يستبعد أن يكون القوط قد حققوا ذات مرة نصرا على الهون فتغنوا به . وقد أمكن التوصل الى أن مكان نشأة هذه الاسطورة هو منطقة البحر الأسود ، ومنها انتقل الى الجنوب الغربى ، حيث يحتمل أن يكون قد تحور على يد الفرنكه ، واتخذ أسماء أخرى ، ولعل اسم هلود هو اسم خلودفيج المعروف عند الفرنكة .

ثانيا ـ أسطورة ارماناريش :

أما هذه الأسطورة فلها أصل من التاريخ نقله الينا نص قديم يوشك أن يكون معاصرا وعالجته نصوص تاريخية أخرى كثيرة يهمنا منها بصفة خاصة تلك التى سجلت فى العصر الوسيط . أما الصياغة الأدبية لهذه الأسطورة فتتمثل فى نشيد اسكندينافى قديم اسمه « هامديسمال » وفى نشيد بالألمانية السفلى (لهجة شمال المانيا) اسمه « موت الملك ارماناريك » . يتحدث النشيد الاسكندينافى القديم « هامديسمال » عن قتل الملك لاحدى النساء ، وما تبع هذا القتل من ثورة فى عشيرتها حملت لواءها الأم (وتسمى جودرون، وهو اسم سنتناوله بالبحث فيما بعد) التى تحرض ابنيها « سورلى » و « هامدير » على الانتقام لاختهما القتيلة « سفانهيلد » . فقد أنزلت ربة المصير « نورنة » نازلة لا راد لها . ويستجيب البطلان لنداء امهما ويركبان الخيل ويخرجان الى الثأر وكأنهما كارهان الخروج :

« ستبكين علينا كما بكيت عليها

فاننا نذهب على ظهور الخيل الى الموت . »

ولكنهما يفعلان لأنه قدر ، قضاء قضت به الربة نورنة . ويقترب البطلان من حرم الآلهة ويظهر فى القتال أن السيوف لا تؤثر فيهما ، وان اصابة الحجر هى الوحيدة التى يمكن أن تودى بحياتهما .

والنشيد الألمانى « موت الملك ارماناريك » نشيد خرج مطبوعا فى القرن السادس عشر الميلادى ، ولاشك أنه نشأ قبل طبعه بقرون كثيرة، ربما فى القرن الثانى عشر . وهو يتحدث عن أشخاص آخرين غير سورلى وهامدير وسفانهيلد وجوردون ، يتحدث عن « ديتريش فون برن » الذى ينتقم من أرماناريش لقتله « الهارلبين » (الهارلونجن) وبالفعل يقع ارماناريش فى قبضة ديتريش الذى يسدد اليه ضربة بالسيف تقضى عليه . وبالنشيد اشارة الى الهون والى « بلوديلين » الذى يقال أنه أخو « اتلى » ، وأن الانتقام من ارماناريش لايتم الا به .

والأصل التاريخى الذى نبهنا اليه فى أول حديثنا عن هذه الاسطورة عبارة عن نص كتبه « أميانوس ماركيللينوس » فى عام ٣٩٠ بعد ميلاد المسيح ، يسجل فيه موت ملك دولة القوط العظيمة الواقعة على البحر الأسود ، فى عام٣٧٥ ميلادية ، منتحرا بعد يأس من الوقوف أمام جحافل الهون الجرارة التى زحفت على أرضه . ويبدو أن هذا الانتحار هز النفوس فى أعماقها ، وتحور وصفه بمضى الزمن على يد المتأخرين . فى القرن السادس مثلا نجد كاتبا مثل « يوردانس » يذكر أن ارماناريش ، أعظم وأكرم الأمالر ،انتهى على يد قبيلة « الروزومونن » الخائنة التى خانته. والذى حدث أنه لماعلم بالخيانةغضب غضباشديدا جعله يهجم على زوجة رجل من الخارجين عليه وينزلها من فوق الحصان ويمزقها شر ممزق . (اسم هذه المرأة سونيلدا) . فيغضب أخواها « ساروس » و « أميوس » ويثأران من الملك ارماناريش بضربه ضربةأصابته بجراح بالغةلم تلبث أن أنهت حياته . أما الكاتب « فلودوارد » من القرن العاشر فيروى عن المطران فولكو قصة تفيد أن الناس فى ذلك العصر كانوا ينسبون الى ارماناريش أنه قضى على أهله جميعا مستمعا الى سعى السعاة ووشى الوشاة . ولدينا رواية أخرى من القرن التالى ، ربما كانت معتمدة هى الأخرى على نشيد أو أناشيد ارمانريش ، تفصل كيفأفنى ارماناريش أهله وتذكر أنه قتل ابنه فريدريش وابنى أخيه « امبريكا » و « فريتلا » وتختم الرواية قصة ارمانريش بأن الاخوة هيميدوس وسيريلا وأودؤاكر قطعوا يديه وقدميه وانتقموا منه شر انتقام لقتله أبيهم .

ولاشك أن الرواية الأولى التىأوردهاأميانوس ماركيللينوس » فى القرن الرابع هى التى تتسم بالقيمة التاريخية ، وأغلب الظن أن الروايات « التاريخية » التالية اعتمدت على ما كان قد نشأ بين الناس من عناصر الأسطورة،وما كان قدتحول منها الى نشيد أو أناشيد .

ثالثا ـ أسطورة ديتريش :

أعظم شخصية أسطورية ألمانية هى شخصية ديتريش التى ترجع بلا شك الى شخصية تاريخية هى شخصية تيوديريش الذى ولد فى عام ٤٥٥ الميلادى ، ابنا للأمير القوطىتيوديمير (فى عشيرة الأميلونجن) من زوجة غير شرعية ، حسب تقاليد الجرمان فى ذلك الزمان والمكان . وقد ارتقى

تيوديمير العرش بعد وفاة أخيه فى عام ٤٧٨ . ويحكم المؤرخون أن الصغير تيوديريش أخذ وهو فى الثامنة من عمره رهينة الى القيصر ليون ، قيصر الأمبراطورية البيزنطية ، فظل فى «المنفى» بعيدا عن أهله وعشيرته عشر سنوات . ثم عاد تيوديريش وأصبح قائدا للجيش ثم تولى العرش بعد موت أبيه . وراح يجول فى البلقان عشرين سنة مع رعيته بحثا عن مستقر دون الوصول الى مكان يرتاح اليه (فى خلالها دخل معارك كبيرة مع خاله واسمه تيودريش وكان حليفا لبيزنطة) .وكان أن عرض عليه الامبراطور زينون أن يستولى على ايطاليا أو بعبارة أخرى أن يستعيدها من الغاصب أودؤاكر ، قائد الهون ، خليفة أتيلا الذى خلع رومولوس أوجستوس عن عرش الأمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦ . وبالفعل دخل معه فى معارك مظفرة من أشهرها معركة فيرونا (برن) ومعركة رافينا . فلما تأكد له النصر احتال على أودؤاكر بأنه سيشركه معه فى الحكم حتى أنس اليه فقتله بسيفه.ويدعى المؤرخون المالئون لتيوديرتش أنه كان بذلك ينتقم لأخيه تيوديموند . وحكم تيوديريش زمنا طويلا عظيما معظما الى أن ماتفى عام ٥٢٦ . وتغنت به الأناشيد حتى فى حياته ذاكرة السنوات العشر فى النفى والسنوات العشرين فى التجوال ثم الانتصار على الهون والافتخار بقتلة أودؤاكر مع تبريرها .

هذا هو النسيج التاريخى الذى دخل الأسطورة . وقد بدأ كتاب التاريخ فى العصور التالية عملية التحوير التى لاشك أنها على الأناشيد والأساطير . فمن قائل ان ديتريش كان مكلفا من قبل القيصر ليون ، ولى نعمته ، بتخليص ايطاليامن أودؤاكر وقومه ، فلما تم له هذا ، وشى الوشاه بينه وبين القيصر فغضب القيصر عليه وقرر خلعه من ايطاليا ، فحذره صديق قديم له فاحترس وتمكن من الابقاء على حياته وعلى حكمه فى ايطاليا . ومن قائل أن ديتريش هذا هو ابن أخى ارماناريش وانه استمع لوشاية أودواكر فبعث بديتريش الى أتيلا ، الى آخر هذه الروايات التاريخية . كذلك دخلت عناصر من أسطورة ديتريش فى الأساطير الانجليزية القديمة وفى شعر كثير من شعر العصر الوسيط الألمانى .

وقد وصلنا نشيد ناقص من أناشيد اسطورة ديتريش ، هو نشيد هيلد بيراند ، حفظه التاريخ لنا بطريقة المصادفة ، فقد وجد فى بعض الآديرة مكتوبا بقلمين ، ويبدو أن اثنين من الرهبان كتباه للتمرين على الكتابة وتحسين الخط أو لتجربة الحبر أو الريشة . ويحكى النشيد مادة بطل عائد بعد غيبة ثلاثين عاما فى صراع الهون : هذا البطل هو هيلد بيراند « معلم السلاح فى جيش ديتريش» ويمزجها بمادة الصراع بين الأب والابن . ولكن النشيد يورد الكثيرمن حديث ديتريش ورجاله الذين خرجوا لمحاربة الهون ، وكانوا على درجة كبيرة من البسالة ، وظلوا ثلاثين فى حربهم الجريئة التى كان القيصر البيزنطى يساندها .

وهنا أبحاث كثيرة حول هذا النشيد خلاصتها أنه مزيج من أناشيد مختلفة نشأ فى عصور مختلفة الى أن انتهى الى الورق فى القرن التاسع الميلادى، والمعتقد أنه كان أصلا نشيدا يتغنى بديتريش ثم اندمج مع أناشيد أخرى ، كذلك اندمج مع مادة من مواد الميتوس هى مادة التنازع بين الرب الأب والابن الانسان (زيوس وهرقل) .

وهناك ملحمتان متأخرتان جدا ، من نهاية القرن الثالث عشر على الأرجح ، تحكيان مرحلة

أخرى من مراحل أسطورة ديتريش ، أهمها ملحمة « فرار ديتريش » . هنا نجد ديتريش عدوا لارماناريش ـ أو على الأصح ارماناريش عدوا لديتريش ـ ، وارماناريش يرتكب فظائع شديدة اذ يفتك بأبناء أخيه ويستولى على مالهم وأرضهم ويهم بفعل الشيء نفسه مع ابن أخيه ديتريش . ولكن ديتريش يعرف بمكر عمه وتدوربين الاثنين عندبرن(فيرونا) معركة ينتصر فيها ديتريش ويأسر نحو ألفين بينهم ابن أرماناريش ، أما أرماناريش نفسه فيتمكن من الفرار . ثم تتحول المعركة نتيجة هجوم يقوم به « ڤيتيجه » ، ويقع سبعة من أبطال ديتريش فى يد أرماناريش من بينهم « هيلديبراند » و « فولفهارت » و « ديتلايب ». ويطلب أرماناريش من ديتريش أن ينزل له عن ماله كله وملكه كله فورا والا قتل الأبطال السبعة . ولا يطول بديتريش التفكير بل يقرر على الفور أن يشترى حياة رجاله ويبيع ملكه كله . وهكذا يتحول من ملك عظيم الى رجل ذليل لا يجد نعلا لقدميه ، يسيرا حافيا هائما على وجهه الا أن يفد على الملك اتسل فيكرم وفادته .أما الملحمة الثانية فهى ملحمة « معركة رابن » التى تعتبر الحلقة التالية من الأسطورة ، وفيها يعطى اتسل ديتريش جيشا كبيرا ليسترد به ملكه من الغاصب أرماناريش ويرافق هذا الجيش « شاريف » و « أورت »ابنى اتسل . وفى برن يتركهما ديتريش مع أخيه«ديتر» فى حماية البطل « السان » ويشتد الغيام ذات يوم فيضيع الشبان من بصر « السان » ، ويلتقون « بڤيتيجه » الذى يصرعهم . وفى تلك الأثناء يكون ديتريش منهمكا فى معركة رابن التى ينتصر فيها على أرماناريش . ويذهب اليه « السان » ويبلغه بما حدث فيقتله . ويطارد ديتريش ڤيتيجه ، ويكاد أن يقتله لولا أن تتدخل جدتهوهى جنية من جنيات الماء وترفعه اليها . ويضطرب ديتريش ولا يعرف وسيلة يحفظ بها الأرض التى طرد أرماناريش منها، ويعود حزينا الى اتسل ، ويتوسل اليه أن يضمه اليه ، وتتدخل « هلشه » زوجة اتسل ، ويصفح اتسل عن ديتريش .

ويجدر بالذكر أن اسطورة ديتريش بقيت فى نص أقدم من الملحمتين السابقتين هو نص « تيدريكساجا » الاسكندينافى الذى يرجع الى منتصف القرن الثالث عشر . والشيء الذى يميز هذا النص الاسكندينافى هو أنه على الأرجح مترجم عن نصوص ألمانية كانت معروفة فى شمال ألمانيا ، وأنه عبارة عن خليط من الأساطير الألمانية كلها تقريبا ، ففيه الى جانب ديتريش وأرماناريش « ڤيلاند » و « زيجورد » على سبيل المثال . وتنتهى هذه الملحمة الاسكندينافية بصراع ديتريش وزيجورد«زيجفريد» البطل المغطى بطبقة من القرنية ترد ضربات السيوف) ينتصر فيه ديتريش . وفى هذه الملحمة فصل مشهور هو معركة الاثنى عشر ، وهى المعركة التى نازل فيها وبجانبه اثنا عشر بطلا من رجاله الملك « ايزونج » واحد عشر ابنا له وزيجفريد . وتتبين فى هذه المرحلة التى وصلت اليها الأسطورة أن ديتريش اتخذا ابعادا شيطانية ميتولوجية .

وقد دخلت أسطورة ديتريش بصورها المختلفة وتركيباتها الكثيرة فى مؤلفات ألمانية عديدة قديمة وحديثة ، وأهمها نشيدالنبيلونجن أو النيبيلونجنليد الذى سبق أن ظهرت عليه دراسة خاصة فى هذه المجلة (المجلد الرابع ، العدد الأول ، يناير ١٩٦٦)

رابعا ـ أسطورة فيلاند :

تكونت هذه الأسطرة على الأرجح من قصة موجزة وردت فى «قصة حياة القديس سيفيرينوس» التى ترجع الى سنة ٥١١ ميلادية ، وكان هـذا القديس قد ذهب لتبشير الملكة الروجية «جيزو» فأساءت استقباله وأغلظت له وعذبته . وتفيد القصة التى جاءت فى هذا الكتاب أن الملكة كانت تحبس فى قصرها اثنين من العمال المتضلعين من الحدادة والصياغة ، وكانت تسخرهما فى صناعة الحلى وما يتخذ للزينة والزخرف ، فنقما منهما نقمة شديدة ، وقررا الانتقام منها ، وانتهزا فرصة دخول ابن الملكة وهو طفل صغير الى مكان عملهما وأعلنا أنهما سيقتلان الصبى اذا لم يطلق سراحهما فاضطرت الملكة انقاذا لابنها الى أن تفرج عن السجينين. ولابد أن مراحل تطور الأسطورة ضمت الى العناصر المذكورة صورة كانت شائعة فى ذلك العصر عن الصناع الذين يجيدون صناعة الأسلحة والحلى ، وكانت تضفى على هؤلاء الرجال لونا فوق مستوى البشر ، وسمة من السحر أو الشيطانية على نحو عرفته أمم أخرى أيضا . كذلك تبين البحث اللغوى أن سيرفيوس شارح فرجيل يحتمل أن يكون قد أسهم من حيث لا يعلم فى تشكيل الأسطورة ، عندما شرح اسم «فولكانوس» على أنه مشتق من فعل معناه «يطير» ـ وهو خطأ ـ وهكذا دخل عنصر الطيران فى الأسطورة (أما اسم ڤيلاند فمشتق من فعل قديم معناه يصوغ فنيا (أى على نحو سحرى ، اذا أردنا مطابقة روح العصر) ، وعلى هذا تعنى كلمة « ڤيلاند » صانع أو صائغ أو حداد أو صانع أسلحة) كذلك يرجع الى سيرفيوس ، وهو من كتاب نهاية القرن الرابع الميلادى ، تصوير شخصية فولكانوس على أنه كان صائغا مشلولا وأنه اغتصب الربة مينيرفا عندما ذهبت اليه تلتمس طرفا من فنه . وقد أطلق سيرفيوس لخياله العنان وتحدث عن صائغ آخر اسمه « ديديلوس » صنع لنفسه أجنحة طار بها فرارا من السجن الذى زجه فيه الملك مينوس ، واحتال بالمال على حارس من حراسه حتى اشترى له الريش اللازم لصناعة الأجنحة .

ومن هذه العناصر تكونت ، ربما فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، قصة الصائغ الماهر ڤيلاند الذى وصلتنا فى نصوص ثلاثة . النص الأولى هو نشيد مجموعة « الايدا » الاسكندينافية . والنص الثانى هو نص أسطورة تيدريكساجا الذى سبق أن أشرنا اليه فى حديثا عن ديتريش والنص الثالث متأخر هو ملحمة « فريدريش فون شڤابن » التى كتب فى القرن الرابع عشر الميلادى . كذلك هناك صندوق من القرن السابع الميلادى عليه صورة وكلام عن ڤيلاند وأسطورته . والمستفاد من سجل هذا الصندوق ـ مع اضافات من التيدريكساجا ـ أن ڤيلاند يتعلم السحر من الأقزام ثم يذهب الى الملك نيدهاد ، ولسبب ما تقطع أعصاب ركبتيه ، ربما بناء على مشورة الملكة حتى يبقى حكرا لها ولزوجها ولكن أخاه «اجيل» المشهور فى الرماية يلتحق بالبلاط ويصيد لأخيه طير السماء فيجمع هذا ريشه ويصنع لنفسه منه جناحين ليطير بهما فرارا من الحبس . ولكنه قبل أن يهرب يقتل ابن الملك ، أو ربما ابنى الملك ، ويصنع من الجمجمة والعظام حليا يرسلها الى الأسرة الملكية ، كذلك يعتدى على الأميرة الصغيرة بادوهيلد التى تقصده ومعها وصيفة لها ليصلح لها اسورة تحطمت . ويحوم ڤيلاند معلنا انتقامه على الملأ . ويغتاظ الملك ويأمر

« اجيل » بأن يرمى ڤيلاند (أخاه) ويقتله ،ولكنه لا يصيبه فى مقتل . ويهـــرب ڤيلاند طـائرا بجناحيه .

وقد تحورت هذه الأسطورة الى شكل آخر على يد شاعر من شمال ألمانيا هنا يظهر ڤيـــلاند فى هيئة البه ، كائن من أشباه العفاريت ، وهناتزيد أشياء وتنقص أشياء أخرى . فالأميرة تذهب الى ڤيلاند وحدها ، لاترافقها وصيفة ، والملك يكون له ابنان لا ابن واحد ، وڤيلاند لا يكون له أخ يأتى الى البلاط . والبداية تختلف اختلافا بينا ، تبـدأ الأسطورة هنا بثلاثة أخوة يخطفون من ثلاثة من البنات البجع أكسية الريش ويرغمنهن بهذا عـلى الزواج ، وتظل الحال على هذا المنوال تســع سنين ، تتمكن بعدها من الحصول على أكسـية الريش والطيران بها الى الأبد . ويذهب الأخـوان كل مذهب للبحث عن زوجتيهما أما ڤيلاند فيبقى وحيدا حزينا ينتظر حبيبته أن تعود اليه ويتســلى بصناعة الحلى لها ، ويتصادف أن يمر عليه رجال الملك ويرون مايفعل من أدوات الزينة ، ويأخذون خاتما يقدمونه الى الملك فيسر به ، ويقرر أن يحتكر الصائغ المبدع ، وتستمر أحداث الأسطورة على النحو الذى عرضناه من قبل .

ثم انتقل هذا النشيد الألمانى الى انجلترا حيث تحور مرة أخرى الى نشيد أنجلوسكسونى انتقل بدوره الى النرويج وهناك تكررت صياغته وأدخلت عليه تعديلات مختلفة منها مثلا تحويل البنـــات البجع الى أميرات من البشر هن : ألفيت وسوانفيتا وأولرون وتحويل المنظر الى منظر اسكندينـافى هذه الصيغة بقيت لنا نشيد « الايدا » .

أما النص الثانى الذى وصلنا فهو كما ذكرنا من قبل نص تيدريكساجا ، وفيه يدخل ڤيـلاند فى مغامرات عديدة ويرتبط بشخصيات وأحـــداث مختلفة . فهو ابن ڤيتيجه (الذى عرفناه فى أسطورة ديتريش) ، وبهذا يدخل فى زمرة أساطير معركة الجرمان والهون . وقد تعلم الحرفة مع زيجـورد «زيجفريد» على الصائغ ميرمير وعلى الأقزام فى جبل بالوفا . ثم سافر فى مركب قاعه من جـزوع الشجر وجدرانه من الزجاج على صفحة نهرالفيزر الى الملك نيدونج فى يوتلاند حيث يعمل صـائغا لديه ، وينشـب بينه وبين صـائغ الملك القديم أميلياس صراع ينتهى بأن يقتل ڤيلاند خصمه ، ويحكم الملك على ڤيلاند بالنفى فيفكر فى الانتقام لنفسه بسم ابنة الملك .

وتفشل المحاولة فيعاقب الملك ڤيلاند بقطـــع أعصاب ساقيه . وتدور باقى الأحداث على النحو الذى وصفناه من قبل . حضور الأخ أجيل الى البلاط والعمل به كبيرا ومعلما للرماة ، ومساعدته أخاه بجمع الريش ــ إنتقام ڤيلاند من أبناء الملك بقتلهم ومن بنت الملك بالاعتداء عليها ــ الطيران بأجنحة صنعها من الريش ــ تكليف الملك كبير الرماء بالتصويب على ڤيلاند الهارب ــ الأخ يصوب ولا يقتل أخاه بل ــ وهذا شىء جديد هنا ــ يصيب مثانة ممتلئة بدم أولاد الملك كان ڤيلاند يضعها تحت ابطه لهذا الغرض ، واتفق مع أخيه عـلى التصويب عليها .

والنص الثالث الذى بين أيدينا هو نص ملحمة « فريدريش فون شڤابن » من القرن الرابع عشر وفيها حبيب يبحث عن محبوبته واسمها انجلبورج التى اختفت بلبس كساء الريش والتحول الى حمامة ثم يستعيدها بالاحتيال وسرقة كساء الريش الذى تخلعه هذه المخلوقات عندما تستحم . هذا النص

ليس من مرتبة النصين السابقين ، ولكنه نص له أهميته خاصة وأنه يسمى الحبيب أحيانا باسم قيلاند . فان شئنا ضممناه الى نصوص الأسطورة وان شئنا جعلناه من النصوص المتأخرة التى تغترف من خزانة الأساطير

خامسا : أسطورة النيبيلونجن :

الحديث عن اسطورة النيبيلونجن حديث ذو شطرين : من ناحية موت زيجفريد ومن ناحيةثانية نهايةالبورجوند .والحديثعن أسطورةالنيبيلونجن هو فى الوقت نفسه حديث عن الملحمة العظيمة التى تحمل الاسم نفسه والتى سجلت نحو عام ١٢٠٠ للميلاد ملحمة : النيبيلونجنليد . أما أسطورة زيجفريد فهى ترجع على الأرجح الى أصل تاريخى هو موت الملك زيجيبرت ، الذى كان فى القرن السادس الميلادى ملكا فى الشق الشرقى من الدولة الميروفنجية . كان هذا الملك متزوجا من امرأة من قوط الغرب اسمها برونهيلد . وحدث فى عام ٥٧٥ أن حرضت امرأة اسمها «فريديجوند» كانتخليلة أخيه شيلبرش من قتل الملك زيجيبرت . وقد تحولت الأسماء بالتدريج الى زيجفريد والى جريمهيلد (كريمهيلد) ونقل اسم برونهيلد الى فريديجوند . وهناك كتاب عن ملوك البورجوند يرجع الى مطلع القرن السادس الميلادى يتحدثعن الملك جوندوفيش المتوفى عام ٤٦٨ للميلاد ويذكر أجداده جيبيكا وجودومار وجيزلاهارى وجونداهارى . والمشهور من هؤلاء تاريخيا هو جوندا هارى الذى ارتبطا اسمه بنهاية البورجوند فقد مات وفنى كثير من شعبه عام ٤٣٧ فى معركة ضد الهون .

وكان جونداهارى قد زحف بشعبه بين عام ٤٠٦ و ٤١٣ غرب الراين بحثا عن مكان (ناحية ثورمس) وظل يحد تحركاته ناحية جاليا (فرنسا) وبلجيكا ، فتعرض له جيش الهون الذى استنجد به أتيوس وكانت النهاية كما قلنا (آلاف مؤلفةمن الموتى بينهم أسرة الملك والملك نفسه) .

وقد امتزجت كل هذه العناصر بعضها مع البعض واضيف اليها مثلا صراع جونتر (جونداهارى) وأتيلا الذى كان بين عام ٤٣٣و٤٥٣ رئيس الهون (مع أخيه بليدا الذى قتله فى عام ٤٤٥) وتزوج جرمانية اسمها هيلديكو وأسرف فى ليلة العرس فى الطعام والشراب فمات . وهناك بعض المصادر التاريخية تذكر أن أتيلا كانمتزوجا من أميرة اغريقية كانوا يسمونها (كريكا) أو (كيركا) وهو اسم تحور الى هركيا ثم هلشه .كذلك تورد بعض المصادر أن أتيلا كان متزوجا بأخرى هى ابنة أمير جرمانى ، وكان اسمها كريميلدس ، وربما كان اسم كريمهيلد فى الأسطورة مرتبطا بهذا الاسم . هذه هى العناصر التاريخية التى تكونت منها الأسطورة ، أشرنا اليها بايجاز .ولا شك أن عناصر من الميتوس امتزجت بها ، وقد نوهنا من قبل الى الأبحاث التى تعيد زيجورد (زيجفريد) الى أصل هو اله الشمس الذى تتصارع معه قوى الظلمات صراعا ينتهى بفناء الوجود ونشأة كون جديد ويلد فيه اله الشمس من جديد ، والأبحاث الأخرى التى تقارنه بالاله بالدور .

ويمكننا أن نقول أن أسطورة النيبلونجن بناء على ماتقدم قد بدأت من نواة ميتولوجية تدور حول اله الشمس الذى يموت ليولد من جديد ، أو تدور حول ابن الآله الذى تتعرض له القوى المعادية وتقضى عليه الى حين . وتجمعت حول هذه النواة الصورة التاريخية للملكزيجيبرت الذىقتلته فريديجوند

(هذه الصورة البورجوندية الأصل) والصورة التاريخية لفناء البورجوند ، وموت جونداهارى وأتيلا وأبناء أتيلا . فلما وصلت الى هذه المرحلة من التطور بدأت الصياغة على المستوى الشعبى على درجات . وقد وصلتنا مجموعة من هذه الصيغ ، وضاعت مجموعة أخرى يجتهد البحث منذ زمن طويل الى اعادة رسمها . من الأناشيد التى وصلتنا «نشيد أتلى القديم» و « نشيد زيجورد» و «نشيد الفولسونج» و « أسطورة تيدريك » ثم الملحمة الرائعة التى تعتبر أكمل صياغة للاسطورة كلها « نشيد النيبيلونجن » ، وأناشيد متأخرة مثل «نشيد زيجفريد» .

وقد نشرنا من قبل فى هذه المجلة فى العدد الأول من المجلد الرابع يناير ١٩٦٦ دراسة عن هذه الأسطورة فى معرض الحديث عن النيبلونجنليد ، ونحيل اليها القارىء .

سادسا ـ أسطورة جودرون :

كان من حظ الأدب الألمانى القديم عامة وملحمة جودرون خاصة أن اهتم القيصر الألمانى ماكسميليان فى القرن السادس عشر (١٤٩٣ ـ ١٥١٩) بجمال العصور القديمة وروعة مؤلفاتها ، وقرر أن يجمع منها مايستطيع جمعه ويسجله فى سجل يحميه للاجيال التالية . وهكذا نشأ المخطوط (البرشمانى) العظيم المسمى مخطوط أمبراز أو المخطوط الأمبرازى ، نسبة الى قصر امبراز بالتيرول الذى حفظ فيه أول الأمر ، الى أن نقل فيما بعد الى ڤيينا . فى هذا المجلد الثمين النص الأوحد لملحمة عظيمة هى ملحمة جودرون أو نشيد جودرون ، تدور حول أسطورة من أهم الأساطير الألمانية أسطورة هيلدة . ولو لم يخطر ببال القيصر ماكسميليان هذا الخاطر ويقدم على هذا المشروع الثقافى الذى لاتعرف الأجيال التالية سبيلا الى التوفية بتقديره ، لما وصلتنا هذه الملحمة ، ولظلت معلوماتنا ناقصة مشوهة .

هذه الأسطورة تفتقر الى الأصل التاريخى ، فلسنا نعلم للآن أحداثا تاريخيا نسمح لأنفسنا بردها اليها ، وقد اجتهد الباحثون لذلك فى استجلاء مايمكن أن يكون الميتوس قد تركه بهذا النشيد أو هذه الاسطورة البطولية من آثار . فالأسطورة تضم فى أقدم صورة وصلتنا فيها الينا عنصر خطف العروس وعنصر تصارع الأب وخاطف ابنته ، أو بعبارة أخرى عنصر المرأة الحائرة بين أبيها وبين خاطفها ، وقد ذهب بعض الاقدمين الى القول بأن هذا الصراع هو صياغة جديدة لميتوس الصراع بين الليل والنهار ، وقد يكون هذا الصراع بكل بساطة نموذجا آخر للصراع الذى طالما تحدثت الآثار الأدبية القديمة وصورته على أن نتيجة وجود المرأة أو تدخل المرأة فى حياة الرجال .

وأهم مصادر الأسطورة عندنا هو ديوان «الايدا» الاسكندينافى ثم مابقى فى الاساطير الأنجلوسكسونية وكذلك مانعثر عليه من تلميحات فى المؤلفات الألمانية القديمة السابقة على « نشيد جودرون» ، أى السابقة على عام ١٢٤٠ . وتفيد هذه المصادر أن الأسطورة تكونت فى منطقة بحر الشمال ، المنطقة الفريزية ، وموضوعها يدور حول الملك هيدين «هيتيل» ابن الملك هيراندس «هورانت» الذى يخطف هيلده ، ابنة الملك هوجنى «هاجن» فى وقت لايكون فيه الأب موجودا مع أهله ، بل يكون غائبا يشترك فى مؤتمر الملوك . وما أن يعود الملك الى دياره ، حتى يأمر بتجهيز سفن ورجال ويركب البحر على أسطول وجيش

يطارد الخاطف على طول الساحل الى جزيرة هيج. وهناك يلمح هيدين وقومه ، ثم يرى ابنته هيلده التى تقبل نحوه وتعرض عليه السلام باسم هيدين، وتقدم اليه هدية ، عقدا ثمينا ، اتباعا لعادة العصر فى اثبات حسن النية .

ولكن أباها الملك هوجنى يرفض العرض رفضا قاطعا ويغلظ لها ، فتعود الى حبيبها حزينة تبلغه فشلها فى تهدئة أبيها . ويقف الملكان على الأرض وينظمان جيوشهما وتوشك الحرب أن تشتعل. فتحاول هيلده محاولة أخرى وتصيح فى أبيها أن يقبل السلام وتعرض عليها كثيرا من الذهب تكفيرا عما فعله حبيبها . ولكنه يرد عليها قائلا أنه قد سحب سيفه «داينسالايف» الذى صنعته الأقزام من غمده ، ولاسبيل الى اعادته الى الغمد الا بعد أن يصيب انسانا ، باصابات مميتة ، وتبدأ المعركة معركة هيادننجافيج (بين الهيادننجة والهيجيلينجة) وتستمر يوما بأكمله . وعندما يجن الليل تذهب كل جماعة الى سفنها للنوم والاستعداد لليوم التالى ، وتذهب هيلده الى المكان الذى سقط فيه القتلى فتتلو سحرا يبعثهم من الموت أقوياء ليشتركوا فى المعركة التالية . وهكذا استمرت المعركة ، وظلت تتجدد يوما بعد يوم ، وكلما سقط قتلى وتكسرت أسلحة بعثتها هيلده بما أوتيت من سحر . وظل هذا قدرا لاينتهى الا عند راجنا روكر أفول الآلهة ، معركة تتجدد كل يوم وقتلى يبعثون وأسلحة تنشر .

وهناك صيغة متأخرة من الأناشيد الاسكندينافية ترجع الى القرن الرابع عشر (سورلاداتر) تضع الأسطورة فى قالب آخروتربطه بمواد أسطورية أخرى وبمواد من ميتوس الشمال. الربة «فرايا» لايمكن أن تستعيد العقد الذى سرقه «لوكى» ، الا اذا حرضت ملكين على التقاتل ، وتركتهما يتقاتلان الى الموت ثم بعثتهما ليعودا الى التقاتل الى الموت مرة ثانية ، وهكذا دواليك الى أن يأتى مخلص فيخلصهما من هذا القدر الأبدى. وتعتمد الربة فرايا على العرافة «جوندول» فى بث الخصام بين «هيدين» ابن الملك هيارانداى ملك سرقلاند (أى بلاد الشرق ، أى العرب أو المسلمين) وبين «هوجنى» ابن ملك الدانيمارك . وتتمكن العرافة جوندول من دفع هايدين الى خطف «هيلدر» (بالراء) ابنة هوجنى ، والى قتل أمها ويخرج هوجنى لمطاردة هيدين الخاطف القاتل فيلحق به عند جزيرة « ها » ، وتعرض الابنة «هيلدر» على أبيها السلام والتفاهم فيرفض رفضا باتا . وتحتدم المعركة بين الطرفين على النحو الذى ذكرناه ، وتتجدد كل يوم ، لمدة ١٤٣ سنة حيث يأتى المخلص « أولاف تريجفازون » فيضع نهاية لها .

وهذا النشيد يبين لنا كيف تتطور الأساطير الى حد دخول عناصر بعيدة الوطن اليها ، فهذا النشيد الجرمانى ، امتص فى مكانه البعيد المتطرف فى البعد شمالا ، عناصر من الجنوب ، من الشرق، ولابد أن نوجه جهودنا الى هذه المادة الشرقية وندرسها يوما ما وتتعقب طريقها الذى سلكته الى هذا النشيد الاسطورى .

أما الصورة النهائية التى اتخذتها الأسطورة فهى « نشيد جودرون » أو « جودرونليد » ويبدأ هذا النشيد بذكر الملك ونسبه . انه الملك زيجيبانت ملك ايرلانده ، ابن الملك العظيم «جير» و الملكة «أوته» . وقد ولد للملك ابن اسماه هاجن ففرح به فرحا شديدا ، ولما بلغ هاجن السابعة من عمره أقام أبوه حفلا عظيما دعا اليه الملوك والكبراء

من كل مكان وأقيمت فى الحفل ألوان من الألعاب والتسالى ، صرفت الناس عن هاجن نفسه . وخرج هاجن يعبث فى الحديقة أو الغابة ، وفجأة أظلمت الدنيا كأن شيئا حجب الشمس ، ولم يكن هـذا الشىء سوى طائر العنقاء الذى حط على الصبى وخطفه وحمله فى مخالبه الى صغاره فبقى معهم . وذات يوم حمل أحد صغار العنقاء هاجن وراح يطير به ويتنقل فوق قمم الأشجار ، وخانته قوته فافلت هاجن من مخالبه واختبأ فى دغل من الأدغال. وكانت هناك فى كهف مجاور ثلاث أميرات فررن من العنقاء كما فر هاجن ، فلما رأين الصبى اعتنين به وأطعمنه مما فى المكان من جذور وأعشـاب. وظل الصبى حتى شب ، وذات يوم ألقت الأمواج بجثة فارس غريق فأخذ هاجن سـلاحه ودرعه وقميصه وتعلم القتال ، حتى اذا هاجمته طيـور العنقاء قتلها واحدا بعد الآخر ، وأصبح هاجن صاحب الأمر على الشاطىء لايهاب شيئا ، ويقضى وقته فى الصيد والقنص ، وتمكن من قتل حيوان غريب اسمه «جابيلون» وشرب دمه فأوتى قوة هائلة فوق قوة البشر . وبينما هو يسير على الشاطىء، مرة رأى سفينة من بعيد فنادى عليها فاقتربت من الشاطىء ونزل قائدها وتحدث معه ، فعرف هاجن أن هذا القائد كان يحارب أهله فى ايرلنده وتبين أنه عرفه هو الآخر ويريد أن يأخذه رهينة ، فحاربه هاجن وحده وغلبه وألقى عشرات من رجاله الى بطن البحر ، وأرغم الآخرين على الابحار به الى ايرلنده . فلما وصل الى هناك عرفه أبوه وعرفته أمه ، ونزل له أبوه زيجيبانت عن العرش ، وتزوج هاجن واحدة من الأميرات الثلاث هى «هيلـده» الهندية (!) وأنجب منها ابنة اسمياها «هيلدة» ، ولما كبرت الابنة أعلن أبوها أنه لن يعطيها الا لمن يكون أشد منه قوة . وكانت هيلده جميلة جمـالا فائقا انتشرت أخباره فى البلاد كلها ووصل الى بلاد هيجيلينجه أيضا على الساحل الألمانى لبحر الشمال فأراد ملكها « هيتيل » أن تكون هيـلده له ، وجهز سفينة عظيمة مرصعة مطهمة وأرسل عليها خمسة من أبطاله المغاوير هم «فاته» و «هورانت» و «فروته» و «مورونج» و «ايرولت» ومعهم رجالا كثيرين للقيام بهذه المهمة الشاقة . وكان على هذه السفارة أن تتحايل وتدعى أن قصدها التجـارة وأن رجالها تجـار . فلما وصلت ايرلنده قدمت الى هاجن الهدايا وراحت تتباحث معه فى أمور التجارة ، وتعرض ماأتت به من بضائع ، فشـملها هاجن بحمايته . وسمح هاجن لهؤلاء التجـارة بدخول البلاط والتحدث الى النساء ، فلقوا هناك الاعجاب أشد الاعجـاب لحسن هيئتهم وطرافة حديثهم وقدرتهم على أشياء أخرى غير التجارة مثل المبارزة (فاته) والغناء (هورانت) . وتمـكن هورانت بغنائه أن يخلب الألباب وأن ينفرد بهيلده ويسر اليها بحب سيده لها ورغبته الزواج منها ، فتوافق هيلده . وكيف لاتوافق وقد خلب غنـاء هورانت لبها ، وقد أبلغها هورانت أن بلاط سيده يدوى بالغناء وأن سيده يعتبر أحسـن المغنيين ؟ ويتفق هورانت مع هيلده على أن يصطحبها الى بلاط هيتيل لترى بعينيها وتسمع بأذنيها ، ويودع الرجال هاجن ، ويأتى هاجن وابنتـه وحاشـيته الى المركب لتوديع الضيوف ، وما أن تضع هيلده قدميها على المركب حتى تقلع هذه مسرعة ، وتتـم المؤامرة، مؤامرة الخطف . ويحاول هاجن أن يطارد المعتدين ولكنه يكتشف أن سفنه قد أخـرقت . وتنطلق السفينة بالغنيمة الجميلة الجميلة الى الملك هيتيل فيفرح أشد الفرح ويعد لها أحسن الاستقبال

وفى المساء تظهر سفن فى الافق ، انها سفن هاجن أعدها على عجل وأتى فى رجال وعتـــاد لعقاب المعتدين الذين خانوه وخطفوا ابنته واستهزأوا به وتدور معركة عظيمة يصيب هاجن فيها هيتيـــل ويصيب فاته فيها هاجن . وتتدخل هيلده وتتـــوجه الى أبيها بالالتماس والرجاء فيصفح عما حـــدث ويوافق على زواج هيتيل وهيلده . وتقام حفـلة باهرة للزواج يشرفها هاجن بحضوره . وتمـــر السنواتويرزق هيتيل وهيلده بابن هو «أورتفين» وابنة هى «جودرون» تفوق فى الجمال ما كانت عليه أمها فى صـــباها . ويأتى الملك زيجفـــريد (ملك بلاد المور ، ولعل كلمة المور تدل علىالعرب كما يقول بعض الشراح) ويطلب يدها فيرفض الأب وينصرف زيجفريد حانقا مهددا بالخطف والانتقام كذلك يرسل الأمير هارتموت ابن ملك النورمان سفارة عظيمة لطلب يد جودرون ، فتعود السفارة بالرفض . ويفكر هارتموت فى اللجوء الى الحيلة والذهاب متنكرا الى بلاط هيتيل ومحاولةالحصول على جودرون بوسيلة أو بأخرى . ويأتى ثالث هو هرڤيج من بلاد البحر ــ المنطقة الفريزية ــ فيطلب يدها ، فلا ينالها . وفى تلك الأثناء يصل هارتموت متنكرا ويتمكن من مقابلة الحسناء والحـــديث اليها . وتميل اليه جودرون ولكنها تنصحه أو يبعد عن الشر ، فيبتعد ، ولكن صورتها الرائعة تظـل ماثلة فى مخيلته تدفعه الى اعداد العدة للحـرب للحصول عليها عنوة . ويســبقه هرڤيج الفريزى بجيش ينازل به هيتيل وتدور معـــركة حاميـة الوطيس ، تتدخل فيها جودرون متوسطة داعيـة الى السلام ويتفق الطرفان على خطبـة جودرون لهرڤيج على أن يكون الزواج بعد عام.وما ان يعلم زيجفريد ملك بلاد المور بذلك حتى يجـرد حملة لمحاربة هيرڤيج ، ويذهب رجال هيتيل لمســاعدة هيرڤيج بنـــاء على نصيحة جودرون . وتظل بلاد هيتيل خالية من الأبطال المغاوير ، فينتهز هارتموت هذه الفرصة ، ويرسل رسله باندار الى جودرون أما القبول وأما الخطف ، فترد باستحالة القبـول لخطبتها الى هيرڤيج . فيهجم هارتمـــوت ملك النورمان ومعه لودڤيجعلى معقلآل هيتيل ويأخذ ويأخذ جودرون وحاشيتها المكـونة من عشرات العذارى ، وبينهن هيلديبورج ، وتنظر الملكة الأم هيلده الى ابنتها المخطوفة حزينة لاتقدر على شىء. وترسل الى هيتيل وهيرڤيج بالخبـر المشـئوم ، فيتفقوا مع زيجفريد على القيام جميعا بعملية انتقام موحدة من هارتموت ورجاله . ويلتقى الطرفانعند عند جزيرة فولبنزاند أو فولبنفيرد وتدور معـركة فظيعة يسقط فيها عدد ضخم من القتلى من بينهم الملك هيتيل ، حتى يسدل الليل أستاره فيعـــود النورمان الى سفنهم وينصرفون بغنيمتهم الى عرض البحر ، ويتبين الهيجيلينجه فى الصباح أن اللحاق بالنورمان محال ، فيعـــودون الى ديارهم وهم مصممون على الانتقام عندما تحين الفرصة ،الانتقام لخطف جودرون من ناحية ولقتل الملك هيتيل من ناحية ثانية .أما النورمان فيعرض كبيرهم لودڤيج على جودرون أن تمتلك كل شىء بالزواج بهارتموت أو أن تفقد كل شىء برفضه . فترفض جـــودرون هارتموتبتصميم لايلين فيهجم لودڤيجعليهاغاضبا ويلقى بها فى اليم ، فيلقى هارتموت بنفسهوراءها ويسحبها من ضفائرها الى قارب يحملها الى البر وتأتى ملكة النورمان الأم جيرلينده والابنة أورترون للقاء القادمين ، فتلين جودرون للابنة وتغلظ للأم. وتعد الأم جيرلند ابنها ، المنكوب برفض جودرون، أن تروض له الحبيبة المتكبرة بينما هو يقوم بما

يقوم به من رحلات ومعارك فى البحر ، فيستحسن ذلك ويوصيها خيرا بها . وتحاول جيرلند أن تصرف جودرون عن تمسكها بخطيبها هيرڤيج وأن تلين قلبها لهارتموت بالحسنى فلا تفلح ، فتلجأ الى القسوة : فتعطى جودرون فراشا غليظا ، وتطعمها طعاما رديئا ، وتضربها وتكلفها بأعمال الخدم من مسح وكنس وغسل فى أقسى الظروف الجوية من برد وثليج ومطر ورعد وبرق . وعندما يعود هارتموت يستنكر فعل أمه ، ولكنه ما يلبث أن يتبين ثبات جودرون على عنادها ، فيؤيد الأم فى غلظتها . ومرت أعوام استعاد فيها الهيجيلينجة قوتهم وكبرت صبيانهم ، فأعدت الملكة هيلده أسطولا قويا ركبه الأبطال من أمثال هيرڤيج وهورانت وفروته وڤاته وأورتڤين ، واتجه الركب نحو بلاد النورمان . ونزل الأبطال الى الساحل دون أن يحس بهم أحد وذهب ارتڤين وهيرڤيج للاستطلاع ، وبينما جودرون على الشاطىء تغسل الملابس حط طائر بقربها وبشرها بقرب الخلاص ، وأجاب على أسئلتها كلها وأعلمها بالأمر وفى اليوم التالى كان على جودرون أن تذهب فى وسط الثليج حافية القدمين الى الشاطىء لتغسل الملابس ، ولقيت من الملكة جيرلند سوء المعاملة والغلظة ولما اقتربت من الشاطىء رأت قاربا ، مالبثت أن دخلت مع راكبيه فى حديث انتهى بالتعارف عرفت أن أحدهما أخوها والآخر خطيبها ، وعرفا هما أيضا من تكون وتعانقا ، ولكن أخاها أورتڤين رفض أن يأخذها هكذا كأنه يخطفها ، وصمم أن يتم استردادها بالحرب • وألقت جودرون الثوب فى الماء وعادت بدونه الى الملكة جيرلند فصممت هذه على عقابها على القاء الثوب بضربها بحزمة من العيدان ذات الأشواك . واحتالت جودرون لتهرب من العقاب وقالت للملكة انها فكرت فى الزواج من هارتموت وأنها موافقة . وأبلغت الأم ابنها بالخبر السعيد ففرح وأجاب طلب جودرون فأعطاها وحاشيتها الملبس الجميل وأعد لهن الطعام الفاخر والفراش الناعم وسرت الفرحة لأول مرة منذ أربعة عشرة سنة فى جماعة البنات ، ورحن يضحكن ، فتوقعت الأم شرا ، وأنذرت ابنها هارتموت ، ولكنه لم يعبأ . وفى الصباح كان جيش الانتقام والتحرير قد وصل ودارت معركة رهيبة تحولت الأرض فيها الى بساط أحمر ، وامتلأت الأنهار بالدماء وتناثرت الجثث والأشلاء فى كل مكان . ووقع هارتموت وثمانون من فرسانه فى الأسر ، أما بقية رجاله فلقوا حتفهم عن بكرة أبيهم ، حتى الأطفال فى المهد لم يسلموا من التقتيل ، الا أورترون ، فقد توسطت لها جودرون اعترافا لها بجميلها عليها أيام شقائها . ويعود الركب الى الملكة هيلده ، وتقام الافراح فيتزوج هيرڤيج جودرون ، ويتزوج أورتڤين أورترون ، ويتزوج هارتموت ــ بعد أن شمله العفو ــ من هيلديبورج ، رفيقة جودرون .

سابعا ــ أسطورة فولفديتريش :

وصلتنا هذه الأسطورة فى مخطوطات أربع من القرن الثالث عشر على الأرجح ، بعضها يختلف عن البعض الآخر . ولسنا نعلم على وجه التحديد هل لهذه الأسطورة أساس من التاريخ أم لا ، فهناك طائفة من العلماء ترى هذا الرأى ، وهناك طائفة أخرى تنفى صلة هذه الاسطورة بالتاريخ أو بالوقائع التى تتشبث بها الطائفة الأولى . والمنادون بصلة هذه الأسطورة يعتقدون أنها تشير الى « توديبرت » من ملوك شرق الدول الميروفنجية ابن «توريديريش» وحفيد «كلودفيج» وهو شخصية تدور حولها أساطير فرنكية قديمة تقول

أن أباه غضب منه ، فخرج يحارب المسلمين ، وأبلى بلاء حسنا فرده أبوه اليه . أما نحن فرأينا أن الوقائع التاريخية التى يستندون اليها غير مرضية ، وأن الأفضل عدم القطع بصلة الأسطورة بها ، وان كنا بصفة عامة نؤمن بأن الأسطورة تمر بمرحلة الوقائع التاريخية سواء أمكننا التوصل اليها أم لم يمكننا .

وتحكى الأسطورة فى احدى صيغها أن الملك «هوجديتريش» ابن «أنتسيوس» كان صاحب عرش القسطنطينية ، فلما مات أبوه وهو بعدصغير تولى الأمير «برختونج» تربيته ولما كبر ظل يتباحث مع مربيه سنوات عديدة فيمن يتخذها زوجة له ، فنصحه هذا بأن يتزوج الحسناء «هيلديبورج» ابنة الملك «فالجوند» ملك سالنيك (سالونيكى) التى حبست فى قلعة وحكم عليها ألا تتزوج . واحتال هوجديتريش للوصول الى مأربه فتخفى فى زى امرأة وتعلم فن توشية الملابس وذهب الى سالنيك وادعى أنه يسمى « هيلديجوند » وأنه أخت ملك الاغريق المشردة . وأحسن الملك وفادته ، فراح يصنع أشياء موشاة بالفضة والذهب يقدمها هدايا ، وأهدى الملك طاقية من الذهب أعجب بها كل الاعجاب ، فطلب لقاءها أن يسمح له بلقاء هيلديبورج فى قلعتها ، وسمح له بذلك بل وأصبح يقيم معها على أنه صديقة تسليها . وبعد عدة أسابيع فتح الملك للأميرة قلبه وصارحها بالأمر فهامت به . وبعد عام أتى الأمير برختونج الى سالنيك وطالب بأخته هيلديجوند (هوجديتريش المتخفى) بناء على اتفاق سابق بينهما على ذلك . وهكذا ترك هوجديتريش حبيبته ، ووعدها بالعودة . ومرت مدة قليلة ولدت هيلديبورج ابنا جميلا له علامة مميزة بين كتفيه ، ولدته سرا فى القلعة فما كان لأحد أن يعلم بما حدث . ويحدث أن تأتى أمها الى القلعة ، فتسرع الحارسة باخفاء الطفل فى لفافة تضعها فى أكمة قرب القلعة ، فيأتى الذئب ويخطف اللفافة بما فيها ويذهب بها الى صغاره ليأكلوها ، ولكن صغار الذئب لايأكلون الطفل . وفى اليوم التالى يذهب الملك فالجوند الى الغابة للصيد ويتتبع الذئاب الى الكهف فيجد طفلا جميلا باكيا فاندهش وأخذه معه وأسماه « ڤولفديتريش » (ڤولف بالألمانية معناها ذئب) لأنه وجده بين الذئاب . وتراه الحسناء هيلديبورج فتتعرف عليه وتحكى لأمها ولأبيها على القصة ، فيصفحان عنها ويرسلان فى طلب هوجديتريش فيأتى وتقام حفلات الزواج ، ويأخذ هوجديتريش زوجته وابنه الصغير ڤولفديتريش الى القسطنطينية ، ويعلنه وريثا له ووليا لعهده . ولكن ڤولفديتريش يتعرض بعد موت أبيه الى محنة كبيرة ، اذ يطرده أخواه الأصغران من الأرض ويحرمانه من حقه . ولا يقف بجانبه الا صديقه القديم «برختونج» وأبناؤه الستة عشر هؤلاء يقسمون على معاونته على استرداد ملكه السليب . وتدور معركة يخسرها ڤولفديتريش ويموت فيها ستة من أبناء برختونج . ويهيم ڤولفديتريش على وجهه بحثا عن برختونج وأولاده العشرة ، الذين فصله عنهم سحر فظيع ربطهم اثنين اثنين الى حائط قلعة وجعلهم حراسا مغلولين لها ، ولكنهم ظلوا مخلصين له ينتظرون يوم الخلاص واللقاء والانتصار. ويصل ڤولفديتريش فى تجواله الى جارتن ويجد صديقه أورتنيت قد مات فينتقم له ويتزوج أرملته « سيدرات » ويصبح قيصرا . وما يلبث ڤولفديتريش أن يجرد جيشا الى القسطنطينية ليخلص صديقه المخلص وأبناءه . ويتخفى فى زى حاج ويكتشف مكانهم ، ويجرى

التعارف بينهم ويدعو المغلولون الله أن يفك قيدهم السحرى فيستجيب لهم ، وتدور معركة بين ڤولفديتريش وأخويه يغلبهمافيها ويأسرهما ثم يعفو عنهما . ويعيش ڤولفديتريش سنوات عديدة من السلام والسعادة ينزل بعدها لابنه عن الملك ويدخل الدير ليكفر عن ذنوبه ويتقرب الى الله ، فقد قتل الكثيرين فيما أشعل من معارك والمسيحية تدعو الى المحبة . ويقضى ليلة فى حساب مع نفسه ومع أرواح الصرعى يموت بعدها ويحمله الرهبان ليدفنوه ، فيعود الى الحياة ويعيش ستة عشرة سنة أخرى فى الدير .

وهناك فى صيغة أخرى رواية مختلفة تستحق أن نشير اليها . وتقول هذه أن البطل ڤولفديتريش هو ابن الملك هوجديتريش ملك القسطنطينية وزوجته «جوتيلونج» أخت ملك الهون اتسل . و لڤولفديتريش أخوان يكبرانه يحملان اسم ديتريش أيضا . وترى الأم ، ولم تكن على المسيحية حلما يجعلها تذهب بالصبى ڤولفديتريش الى ناسك ليعمده . ويتدخل «سابن» الخائن فيوعز الى الملك الأب بأن الصبى من سلالة الشياطين ، فيقرر الملك تكليف أحد خلصائه وهو «برختونج» بقتل الطفل ولكن برختونج يحتكم الى الله بأن يضع الصغير عند بحيرة تكثر عندها الذئاب الجائعة ، ليرى هل تأكله الذئاب أو يحميه الله . فلا تأكله الذئاب فيسميه ڤولفديتريش (سبق أن ڤولف = ذئب)، ويعهد به الى حارس الغابة ليرعاه . وتمضى الأيام وينكشف «سابن» وخياناته وينفيه الملك عن الأرض ويعاد الطفل من الغابة ويكلف برختونج بتربيته ، مع أولاده الستة عشر . ويموت الملك هوجديتريش، فيعود الخائن سابن ويحرض أخوى ڤولفديتريش الى الملك أورتنيت طلبا لمساعدته ، وفى الطريق يضل فتأتى جنية وتساعده ، ولسنا نعرف النهاية حسب هذه الصيغة لأن المخطوط غير كامل .

وثمة صيغة ثالثة تجعل من ڤولفديتريش ابنا لملك أثينا «تريبل» وزوجته الملكة ديتلند . ولسبب من الأسباب (لانعرفه لأن المخطوط عبارة عن مقتطفات متباعدة) يقع ڤولفديتريش وسط الذئاب ويكبر بينهم ، ثم يعود الى أبيه ، ويساعده على الانتصار على أعدائه ويصارع التنين ويتزوج سيدرات أرملة أورتنيت .

ثامنا ـ أسطورة أورتنيت :

صيغت هذه الأسطورة شعرا فى منتصف القرن الثالث عشر . وبطلها «أورتنيت» ملك اللومبارد الذى يقيم فى قلعة بجارتن (جارده) ويبحث عن عروس تكون جديرة به وبالعرش. ويسمع أورتنيت بأن «ناخاءول» ملك الكفار (وهو اسم كان يطلق على العرب والمسلمين فى كثير من المصنفات فى العصور الوسطى) فى موتنابور بسوريا ، له ابنة جميلة ، ولكنه يقتل كل من يتقدم لطلب يدها ، فيقرر أورتنيت الذهاب الى سوريا والتقدم الى الملك ناخاءول رغم خطر القتل . وقبل أن يبدأ أورتنيت الرحلة يذهب الى غابة على بحيرة جارتن ويلتقى بالملك القزم الجنى «البيريش» ويعرف أن هذا الملك الجنى هو أبوه ، فيحدثه بعزمه فيعطيه سيفا عجيبا اسمه «روزه» ويعطيه عدة للقتال لها بريق ، ويعده أن يظهر لمساعدته كلمافرك خاتما عجيبا حصل عليه من أمه . ويركب أورتنيت البحر ويصل الى قلعة الملك ناخاءول القائمة على قمة جبل فى موتنابور . ويعاون القزم الجنى البيريش أورتنيت فى الحصول على العروس،ويتم ذلك بخطفها على حصان والانطلاق بها الى السفينة ولاتتمكن قوات الملك ناخاءول من ملاحقة أورتنيت

لأن البيريش يساعده ويفرق الجنود ويشيع فيهم الاضطراب . وفى المركب يعمد أورتنيت الأميرة المخطوفة ويعطيها اسم «سيدرات» ، ويحتفل بالزواج بها فى جارتن ويقيم فرحا عظيما يحضره البيريش متوجا بتاج ذهبى مرصع بماسة تشع كالشمس ، ويغنى ألحانا تخلب الألباب بمصاحبة الهارب . ويعيش أورتنيت مع زوجه سعيدا مدة طويلة ، وفجأة يرسل البيريش مع بعض القناصين اثنين من صغار حيوان التنين الى جبال ترينتا فى أرض أورتنيت ، قاصدا من ذلك الحاق الأذى بأورتيت . وبالفعل يكبر التنينان ويفسدان فى الأرض ويهاجمان قلعة أورتنيت فينازلهما ويموت فى المعركة .

هذه أسطورة يهمنا بصفة خاصة أن ندرسها درسا مستفيضا لاتصالها بالشرق ، وخاصة وأن الدراسات التى أجريت عليها لم تمس هذه الناحية كما ينبغى على قدر اطلاعى . وآخر ماوصل اليه البحث فى أمرها أنها يحتمل أن تكون مبنية على شىء من الأسطورة الاسكندينافية أو الميتوس الشمالى . فهناك فى هذه الأسطورة الاسكندينافية نص عن ملك دينمركى اسمه هادينجوس ينشأ عند عملاقة جنية ، وينتقم لمدت أبيه «جرام» بقتل ملك السويد «سفيبداج» وينال حظوة عند الرب « أودين » فينتصر فى معارك كثيرة ، ثم ينتحر بأن يشنق نفسه عندما يبلغه خبر موت صديقه العزيز هوندينج الذى انتحر باغراق نفسه فى دن البيرة عندما أبلغه بعضهم كذبا أن هادينجوس مات .

وهناك فى التيدريكساجا قصتان عن ملكين يحملان اسم «هيرتنيت» أحدهما الجد والآخر الحفيد . الأول كان ملك روسيا ومناطق مختلفة فى الشمال ، فلما مات وزع الأملاك على أبنائه ، ومن بينهم أوزاتتريكس الذى تزوج أوستاتسيا العليمة بالسحر والتى ساعدته فى محاربة ايزونج متشكلة بشكل تنين ، وكانت تستطيع احضار جيش من الحيوانات الفتاكة بسحرها ، ولكن زوجها أوزاتتريكس مات مصابا بجراحه . أما هيرتنيت الآخر فيروى أنه كان ملكا على برجارا وأنه كان زوجا لايزولد وأنه سقط فى معركة مع التنين ، فانتقم له الملك تيدريك بسيفه وانقذ الأرملة من قطاع الطرق وتزوجها .

تاسعا ـ أسطورة ڤالتر :

وهذه الأسطورة أيضا لم يوفق البحث للآن فى العثور على الوقائع التاريخية التى يمكن أن تكون قد اعتمدت عليها أو استفادت منها . والمعلوم أن هذه الأسطورة كانت معروفة فى العصور التى نشأت فيها أناشيد البطولة مثل نشيد النيبلونجن والتى كتب فيها ڤالترفون درفو جلڤايده شعره . كذلك عرفت هذه الأسطورة فى المنطقة الانجلو سكسونية وفى المنطقة الاسكندينافية حيث تعالجها « التيدريكساجا » . أما الأدب الألمانى فيعرفها كاملة فى نص كامل باللاتينية اسمه «ڤالتاريوس» وفى ملحمة من العصر الوسيط بالألمانية القديمة اسمها «ڤالتر وهيلديجوند » لم تصل الينا الا ناقصة جدا .

ڤالتر هو حسب الأسطورة ابن الملك «الفيره» ملك أكيتانيا ، وقد أخذه ملك الهون أتيلا رهينة، كما أخذ الأميرة «هيلتيجوند» ابنة الملك البورجوندى «هريريش» وأخذ هاجن رهينة من ملك الفرنكة «جيبيخو» . ويظل هؤلاء الرهائن زمنا عند أتيلا. ويحدث أن يموت جيبيخو ويتولى العرش الفرنكى ابنه جونتر ، فيتمرد على دفع الجزيه الى أتيلا ويخشى هاجن على حياته فيهرب.أما ڤالترفيحاول

أتيلا أن يشده اليه ويقترح عليه الزواج بواحدة من الهون ، فما يكون منه الا أن يهرب مع هيلتيجوند التى تواعد معها على الزواج منذ نعومة أظفاره . ويأخذان معهما صندوقين مملوءين بذهب الهون ويسيران عبر بلاد الفرنكة ، فيعترض سبيلهما جونتر ومعه اثنا عشر رجلا بينهم هاجن الذى حاول أن يصرف الملك جونتر عن هذا الهجوم دون جدوى. ويتمكن ڤالتر عند ممر بالجبل من قتل رجال الملك جونتر جميعا ، ماعدا هاجن ، وكان ڤالتر قد عرض على الملك مائتين من الأساور الذهبية لقاء تركه لحال سبيله فرفض الا أن يأخذ الصندوقين كاملين. ويلجأ الملك جونتر الى هاجن فيرجوه أن يقاتل ڤالتر انتقاما للرجال الذين خروا صرعى ومن بينهم ابن أخيه باتافريد ، فيقبل هاجن على مضض ، خاصة بعد أن رأى ڤالتر قد بتر لجونتر احدى ساقيه . ويتمكن هاجن من كسر سيف ڤالتر ثم من بتر يده اليمنى ، ولكن ڤالتر يعالجه بخنجره الهونى ويقلع به عينه اليمنى ويحطم له عددا من الأسنان . وما أن يصلا الى هذه الدرجة من الاصابة المتبادلة حتى يأخذهما الضحك ويتصالحان ويذهب كل منهما الى حال سبيله .

نموذج من الأساطير البطولية الألمانية :

«نشيد هيلديبراند»

سمعتهم يحكون
أن اثنين من المحاربين التقيا وجها لوجه
هيلديبراند وهادوبراند ، بين جيشين،
جيش الأب وجيش الابن : وشرعا السلاح
ورفعا السيوف ، ولبسا ملابس فرسان يتأهبون للمعركة ،

فتكلم هيلديبراند ، وكان رجلا عظيما
ذا خبرة وحكمة ، فسأل الآخر
بكلمات مقتضبة عمن يكون أبوه
بين الناس ....
... أو من أى أصل انحدرت .
أجب على أحد السؤالين ، وأنا استنتج الجواب الآخر من الأول ،
فأنا كرعية فى مملكة الملك أحيط بك علما
فتكلم هادوبراند ، ابن هيلديبراند :
« قديما قال لى الناس
وكانوا شيوخا محنكين ،
قضوا نحبهم ،
أن أبى كان يدعى هيلديبراند وأن اسمى هادوبراند
وأن أبى زحف ناحية الشرق تحت ضغط أودواكر
وكان معه ديتريش ورجاله الكثيرون .
وترك أبى فى البلد دون ماعون
زوجة فى الدار ، وابنا صغيرا ،
وأهلا بلا تراث ، واتجه الى الشرق .
فلما ساءت حال ديتريش
بقى أبى بلا صديق .
كان أبى يكره أودواكر أشد الكره،
وكان يخلص لديتريش أعظم الاخلاص .
وكان دائما على رأس الرجال ، وكان يحب القتال حبا شديدا ،
وكان الرجال أولو العزم والبسالة يعرفون من هو .
ولست أعتقد أنه لا يزال على قيد الحياة »
فقال هيلديبراند :
« يعلم الاله فى السموات العلى
أنك بهؤلاء الرجال من عشيرتك
لن تزحف بعد الآن ... »
ثم حل من ذراعه أساور

كان القيصر قد أعطاه اياها »
ملك الهون ، وقال : « اليك هذه أعطيك اياها عن
طيب خاطر »
فتكلم هادوبراند ، ابن هيلديبراند :
« بالحراب يكون تلقى هذه العطايا »
غلظة لقاء غلظة ..
انك لعجوز من « الهون » تظن
أنك تغرينى بكلامك ، لتضربنى برمحك
لقد بلغت العمر الذى لاتكف فيه عن الكذب .
ولقد قال لى بعض البحارة العائدين
ان الحرب أطاحت بأبى غربا وراء المحيط .
لقد مات هيلديبراند ، ابن هيريبراند » .
وتكلم هيلديبراند ، ابن هيريبراند :
« انى أرى من سلاحك
ان لك ربا عظيما فى وطنك ،
فلم يحكم عليك بأن تفر من هذه الديار »
وقال هيلديبراند : واحسرتاه ، رباه ياصاحب
الأمر . لقد حلت الكارثة .
لقد تجولت من فصول الصيف وفصول الشتاء
ستين فصلا فى الغربة
حيث كنت منضما الى الرجال الضاربين دائمى
الاندفاع ..

فلم يكتب لى الموت أمام أى حصن من الحصون
والآن يكتب لى أن يضربنى ابنى بالسيف
وأن يصيبنى بسلاحه ، أو أن أصبح أنا
قاتله .
انك لتستطيع بكل يسر ، ان واتتك قوتك ،
أن تجرد الرجل الجليل من سلاحه ،
وأن تغتنم عنه ، ان كان لك فى ذلك الحق
وقال هيلديبراند
« أرزل وأجبن قوط الشرق
من يمتنع عن الدخول معك الآن فى معركة
تريدها .
وسيحسم النزال فى معركة أليمة
أمر من منا ينزل اليوم عن سلاحه للآخر
أو يكون له سلاح محاربين اثنين .
وحطما بأول ضربة رماحهما
فى انتفاضة حادة ، حتى ارتشقت فى الدروع .
ودكا معا حجر الأرض
وضربا بشدة دروعهما الناصعة
حتى صغرت أشجار الصفصاف عن مطاولتهما
وقد حطمتها الأسلحة ..